معركة السياسة
بين هتلر وبيتان
للأستاذ يوسف شبلي

كان المحور الدكتاتوري في المدة التي سبقت إعلان الحرب في سبتمبر في سنة ١٩٣٩ ، وفي المدة التي لحقت إعلانها لا يقوم على أساس مشترك في العمل بين طرفيه ، أو تساو عادل في إبداء الرأي والقطع فيه ، بل استقل بتوجيه المحور في أعماله وفي أفكاره طرف واحد دون الآخر ؛ وتطور الأمر فيما يختص بأحدهما إلى احتلال المقدمة ؛ وفيما يختص بثانيهما إلى الوقوف في المؤخرة ؛ حتى أهمل أمره وهان شأنه في الكبيرة والصغيرة على السواء

ولقد حار الكل في تعليل الموقف في مظهره الجديد ، وطارت الأفكار في تلمس المعاذير والأسباب كل مطار ومدار ؛ فكثرت الاحتمالات ، وتعددت الإشاعات ، واجتهد المقربون والغرباء في الاستنتاج والاستخراج ؛ ونشط الفهيم والعقيم في الإفصاح والإيضاح . إلا أن شيئاً واحداً انقطع دونه التفكير وجف عنده مداد التحبير ، وهو أن يكون الضعف سبب الجمود ، ونفاد الحيلة العلة الأصيلة في هذا الهبوط والقعود

أليس من دلائل القوة أن يعمد الزعيم الإيطالي في كل مناسبة وغير مناسبة إلى الخطب الحماسية يلهب بها أعصاب سامعيه ، حتى إذا انتهى من إلقاء الخطاب تأبط شباب الفاشست — وكلهم دون سن النضوج — منشورات مليئة بالقذف والبذاء في الإنجليز والفرنسيين ، وهرولوا مسرعين إلى حيث يقيم السفير الإنجليزي فيقابلونه بالصفير والتهليل ، وبإلصاق تلك المنشورات على سيارته وعلى دار سفارته !

بل أليس من دلائل القوة أن يعمد السنيور موسوليني في تقديم مطالبه ونشر مآربه إلى رأس المدفع فيتخذ منه مسنداً ، وإلى جناح طائرة فيجعل منه مقعداً ، ليكون من مجمل هذه المظاهر الجوفاء والحركات التكراء صورة لقوة الزعيم ورمزاً للغضب الحليم !

ما كان أحد يتوهم في إيطاليا غير القوة والجبروت ، حتى إذا أشرفت معركة فرنسا في الميدان الغربي على الانتهاء ، وأعلنت إيطاليا الحرب على الحلفاء ، طمعاً في كسب غير مشروع ، ورغبة في غنم مأمون ومضمون ؛ وحتى إذا فوتت انجلترا على الدكتاتورية قصدها بإطالة أجل الحرب ، وتعين على إيطاليا أن تقوم بدورها في القتال ، تكشفت الحقيقة السافرة عن ضعف تام في جميع ميادين الحياة والنشاط

وبينما أحد طرفي المحور يعاني مرائر الهزائم المتوالية في ميادين القتال : ففي الميدان الشرقي انقلبت الجيوش اليونانية في الدفاع في بادئ الأمر إلى الهجوم ؛ وانتقلت بالحرب من البلاد اليونانية إلى الميدان الألباني في بضعة أيام . وفي شمال أفريقيا وشرقها ، أحرزت الجيوش الإنجليزية انتصارات حاسمة في معارك فاصلة ، فوصلت في الشمال إلى ما بعد بنى غازي وأسرت ثلاثين ومائة ألف أسير ، وغنمت كثيراً من عتاد القتال ؛ كما توغلت في الشرق أميالاً عديدة في المستعمرات الإيطالية . نقول بينما أحد طرفي المحور يعاني كل ذلك ، إذا بالطرف الثاني يفشل فشلاً تاماً فيما كان يأمله من غزو الجزر البريطانية جواً وبحراً ، وما كان يرومه من إنهاء الحرب في هذا الميدان ؛ وكلما امتد الوقت بالحرب زاد استعداد الجزر البريطانية لملاقاة العدو إذا غامر بغزوها ، حتى صارت فكرة الغزو اليوم مما لا يمكن تحقيقه أو الإقدام عليه

وهنا وجب على إيطاليا أن تطلب المساعدة الألمانية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حطام ومخلفات ... كما وجب على ألمانيا أن تبحث عن ميدان جديد تقهر فيه إنجلترا ، يكون أقل منعة ، وأضعف حصانة

ولما كان أمام الألمان خطة واحدة يجب عليهم أن يسلكوها ، وهي إما الاتجاه شرقاً ، والانتقال بالحرب إلى البلقان ، ثم إلى الشرق الأدنى ؛ وإما الاتجاه جنوباً ، لتجربة خطة الغزو بحراً في ميدان ضيق إلى شمال أفريقيا ؛ فقد وجدت في هزيمة حليفتها واضطرارها إلى طلب المساعدة الفرصة المرتجاة ؛ فتسللت الجنود الألمانية إلى شمال إيطاليا ، واحتلت أسرابها الجوية جميع المطارات لتعمل هذه القوات في ميدان البحر الأبيض المتوسط ، وتمنع التجدات البريطانية في حالة الاتجاه شرقاً ، أو الاتجاه جنوباً

غير أن المطارات الإيطالية ، صار يقابلها في ليبيا بعد الانتصارات الإنجليزية الأخيرة عدد مضاعف من هذه المطارات ، مما يجعل التفوق للقوات الإنجليزية في هذا الميدان

إذن يجب البحث عن قواعد بحرية وجوية جديدة تطل على البحر الأبيض لضمان التفوق والاطمئنان على نجاح التجربة الجديدة

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، ولم يبق إلا أسبانيا وفرنسا . أما أسبانيا فقد قال جنرالها فرنكو هتلر : إن البحر الأبيض بابين ، أحدهما غربي ، والآخر شرقي ؛ فإذا تمكنت من إقفال الباب الشرقي ، فكرت في مساعدتك في إقفال الباب الغربي في جبل طارق ، وهذا رد لا يفوت معناه ومغزاه على لبيب

اتجه الفوهرر هتلر إلى فرنسا ، فهي أولى بأن تتحمل نتائج الهزيمة ، وغرم الانكسار . فكاشف المسئولين من رجال حكومة فيشي بأغراضه ونياته ، من الاستيلاء على الموانئ الفرنسية ، في فرنسا غير المحتلة وفي المستعمرات ؛ ومن انضمام وحدات الأسطول للعمل مع الأسطولين الألماني والإيطالي ، ضارباً بشروط الهدنة التي حفظت لفرنسا أسطولها ومستعمراتها ناحية الأفق ؛ فأبى عليه المريشال بيتان وحبه أن يجيبوه إلى هذه المطالب والأغراض ؛ وابتدأت المعركة السياسية بين هتلر وبيتان ، تلك المعركة التي كانت منذ شهر يونيو من السنة الماضية ، تتفاوت بين مظاهر اللين والشدة ، وبين الاعتدال والاحترام ، تبعاً لتطورات الحال ، وظهور المفاجآت بين آن وآن

في الأيام التي تلت انكسار فرنسا في الميدان الغربي ، كانت هذه المعركة بين ألمانيا وفرنسا ، تعلوها مسحة من اللين والتهاون ، حيث كان الزعيم الألماني يعني نفسه بقرب غزو إنجلترا ، والدخول إلى قصر بكنجهام ، إذ يشرب فيه نخب الانتصار !

وأما اليوم ، وقد أغلقت جميع الأبواب ، وسدت كل المنافذ والفتحات ؛ ولم تعد يد تمتد إلى الزعيم الألماني بالمصافحة ، فقد تطورت المعركة بينه وبين بيتان إلى احتدام عنيف ، وصفته التلغرافات بأنه تصال البقاء أو الفناء

والحقيقة أن الفوهرر هتلر يحسب حساباً خاصاً للفرنسيين ، لما يعرفه عنهم من حدة المزاج ، ولما يعلمه تمام العلم من استعداد المستعمرات لاستئناف القتال ضده عند الإشارة الأولى . لذلك جاملهم كثيراً في بداية الأمر ، وحاول جاهداً أن يستدرجهم إلى داخل الدائرة الألمانية بالحسنى ولين الجانب . ولم يطرق بابهم بشدة إلا عند ما أفزعته الحوادث ، ووصل إليه فعل التيارات الآخذة في الاقتراب منه . حتى لقد فضل أن يلج الباب الإيطالي ، بحيلة هتلرية ، تحت ستار المساعدة ومباشرة عملية الإنقاذ ، قبل أن يطرق الباب الفرنسي ، ويلح في طلب ولوجه

وإذا كانت الأنباء قد أجمعت على القول بثبات المريشال بتان أمام تهديد الألمان ، ورفضه إجابة مطالبهم ، معرضاً فرنسا لما يحتمل أن تتعرض له ، من ظروف قاسية ، لن تكون بحال أقسى مما هي عليه الآن ؛ فليس الغريب أن تأتينا الأنباء بمثل ذلك ، بل الغريب أن يجيب المريشال بتان هذه الطلبات ، ويستسلم للتهديدات ، في وقت وضح فيه الطريق أمام الحلفاء ، واتسعت فرجات النور وسط الظلام الذي كان مخيما على أوربا عند عقد الهدنة بين الفرنسيين والألمان

إن العوامل التي ترغب الفرنسيين في استئناف القتال ، وتحفزهم إلى تجديد النضال ، كثيرة وعديدة . نجد هذه العوامل في ثبات البريطانيين ، وظهور قدرتهم القائمة على الوصول بالحرب إلى نتيجة مرضية . وفي موقف أمريكا التي وعدت رسمياً بمساعدة الحلفاء مساعدة لا تسمح لدولتي المحور بالانتصار بأي حال من الأحوال ؛ كما أن القانون الذي يطلق يد الرئيس روزفلت في العمل ، على وشك أن يفوز بالإقرار في مجلس الكونجرس . وفي شجاعة اليونانيين ، واستبسالهم في الهجوم في الميدان الألباني وفي الانتصارات الباهرة التي أحرزتها الجيوش الإنجليزية في ميادين الحرب الإفريقية الثلاثة ، مما يبشر بضياع الإمبراطورية الإيطالية قريباً . وفي موقف الدول التي لم تدخل الحرب بعد ، ولكنها أعلنت في صراحة تامة عن عزمها على الدفاع عن كيانها ضد كل من توسوسه نفسه بمباشرة الاعتداء عليها . وأخيراً في روح الحماس البالغة عند أهل المستعمرات الذين يتحرقون شوقاً إلى ملاقاة العدو ، والانتقام للشرف الفرنسي من هزيمة يونيو من السنة الماضية

وإذا تركنا كل ذلك ، نجد أن لفرنسا قوة مادية في أسطولها ، وفي مستعمراتها كفيلة بترجيح كفة الحلفاء إذا اختارت أن تستأنف القتال إلى جانبهم . وإذا عرفنا أن الخمسين مدمرة التي أرسلتها أمريكا إلى إنجلترا ، كانت سبباً حاسماً في بعض الميادين ، خصوصاً في ميدان البحر الأبيض المتوسط ؛ فكم بالحري يكون الفصل لمائة وخمسين مدمرة تملكها فرنسا . لا شك أن عدداً كهذا ، يضاف إلى قوة المدمرات البريطانية ، وما عساه أن يرد من أمريكا ، وما تخرجه المصانع قريباً يكون له فصل الخطاب فيما هدد به الفوهرر في خطبته الأخيرة من عزمه على مباشرة حرب النواصات في الربيع القادم